الفصل الخامس

الدولة الأيوبية والخطر الصليبى

صلاح الدين الأيوبي:

تنسب الدولة الأيوبية إلى مؤسسها يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي بن مروان، وعُرفَ بالناصر صلاح الدين الأيوبي، وهو ليس من أصول عربية بل هو كردي الأصل ويرجع نسبه إلى أحد أكبر قبائل الأكراد، وكان لأسرة صلاح الدين فرصة عظيمة في الوصول إلى أعلى المناصب القيادية في جيش عماد الدين زنكي ثم ابنه نور الدين محمود وهم أصحاب الدولة الزنكية في الشام.

استطاع صلاح الدين إسقاط الدولة الفاطمية في سنة 567هـ، ومن ثم عمل على القضاء على المذهب الشيعي في مصر وإحياء المذهب السني، واتخذ في هذا السبيل عدة اجراءات نذكر منها: عزل قضاة الشيعة وعين قاضيًا واحدا لجميع أنحاء الديار المصرية

على المذهب الشافعي، كما قام بالغاء مجالس الدعوة الفاطمية في الجامع الأزهر وأبطل الأذان بعبارة (حي على خير العمل)، وأمر بذكر أسماء الخلفاء الراشدين في الخطبة، وعمل على إزالة أسماء الخلفاء الفاطميين التي كتبت على محاريب الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع عمرو بن العاص.

أنشأ صلاح الدين المدارس المختلفة لتحل محل الأزهر في القيام بإحياء المذهب السني، كما تخلص من الكتب التي تتناول المذهب الشيعي.

في كل الأحوال استطاع صلاح الدين إعادة مصر إلى سنيتها المعتدلة التي عرفت عنها عبر التاريخ الإسلامي.

أما عن موقف صلاح الدين من سيده نور الدين محمود، فلم يحاول الخروج عليه أو عصيانه، وإن كانت قد ظهرت في الأفق بوادر الاختلاف، وظل الأمر على ما هو عليه حتى توفي السلطان نور الدين محمود سنة 569هـ والذي كانت وفاته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي، إلَّا أن بوفاته قد خلت الساحة لصلاح الدين ليصبح زعيما للعالم الإسلامي.

ومالبث صلاح الدين أن أصبح سلطانًا على مصر، إلَّا وعمل على إقامة جبهة إسلامية موحدة لمواجهة الخطر الصليبي، فقام

بتوحيد مصر والشام والعراق في دولة واحدة، وهو المثلث الإسلامي التاريخي الذي يتولى دائمًا مهمة الدفاع عن الأمة الإسلامية.

عمل صلاح الدين على تحصين مصر والقاهرة تحديدًا، فقام ببناء سور عظيم حول القاهرة ثم حفر خندقًا حوله، أما القلعة فكانت هي الأهم، لأنها ستكون مقرًا للحكم الأيوبي بدلًا من دور الحكم الفاطمية، ولتكن حصنًا يحتمي به من أي خطر يواجهه، وقد أحسن موقعها، اذ بناها على جبل المقطم لتشرف على القاهرة كلها.

وفي زيارة الرحالة الأندلسي ابن جبير لمصر، شاهد القلعة ووصفها بأنها "حصن حصين المنعة"، وقد عهد صلاح الدين إلى الأمير بهاء الدين قراقوش بالإشراف على بنائها، إلَّا أن عمارة القلعة لم تتم إلَّا في عهد السلطان الكامل، ولم يقدر صلاح الدين أن يسكنها.

أقام صلاح الدين قلعة أخرى تقع في جزيرة فرعون قرب مدينة طابا، وقلعة ثالثة تعرف باسم الجندي، ثم شرع في تحصين الموانئ والثغور وبناء الأسطول.

بعد أن أتم صلاح الدين تحصين مصر وتوحيد الجبهة الإسلامية أصبح واجب الوقت على صلاح الدين هو الجهاد ضد الصليبيين في بلاد الشام واسترداد بيت المقدس منهم، وهو لم يتأخر في ذلك.

• التعريف بالحملات الصليبية على الشرق الإسلامي:

في اللحظة التي تقع فيها عيناك على مصطلح الحملات الصليبية أو الحروب الصليبية، قد تعتقد أنها حملات دينية في ظاهرها وباطنها، بينما الحقيقة أنها لم تخرج في باطنها عن كونها عدوانًا استعماريًا اتخذ ظاهرًا دينيًا، حيث اتخذ رجالها من الصليب قناعًا لهم، ليوهموا عامتهم بأنهم يحاربون لنصرة المسيحية من عدوان المسلمين، مستغلين جهل الشعوب الأوروبية التي كانت تعيش عصورها المظلمة، وكانت شعوب فقيرة وقعت فريسة لاستغلال حكام أوروبا لها، الذين أخفوا مطامعهم الاستعمارية في بلاد الشرق الإسلامي.

نجح بابا روما ورجال الدين المسيحي بأوروبا في إثارة حماس الشعوب والحكام لشن حملات صليبية على الشرق الإسلامي في شكل موجات متتالية استمرت حوالي مائتي عام وقد سميت بهذا الاسم، لأن جنود هذه الحملات اتخذوا من الصليب شعارًا لهم ورسموه على صدورهم وأعلامهم.

على أي حال بدأت الحملات الصليبية عام 490هـ بالحملة الصليبية الأولى مستغلة حالة ضعف الدولة الإسلامية أنذاك،

واستطاعت هذه الحملة إقامة أربع إمارات صليبية في الشرق وهي على الترتيب:

1. إمارة الرها شمال العراق
2. إمارة أنطاكية
3. إمارة بيت المقدس، وجعلوها مملكة لأهميتها الدينية
4. إمارة طرابلس

لم يكن صلاح الدين أول من جاهد ضد الصليبيين، حيث كانت الدولة الزنكية قد بدأت رحلة الجهاد ضدهم، واستطاع السلطان عماد الدين زنكي أن يسترد إمارة الرها من أيديهم كما تصدى ابنه السلطان نور الدين محمود للحملة الصليبية الثانية وحرر الكثير من المدن الإسلامية ولكنه تُوفي قبل أن يحقق حلمه في استرداد بيت المقدس.

بعد جهاد الدولة الزنكية، جاء دور صلاح الدين للقضاء على وجودهم في الشرق وإستعادة بيت المقدس من أيديهم.

• **معركة حطين** 583هـ - 1187م:

لم تكن معركة حطين هي الأولى أو الأخيرة بين صلاح الدين والصليبيين، إلَّا أنها أهم المعارك وأشهرها في تاريخ المواجهة

بين المسلمين والصليبيين على مر تاريخ المواجهة بينهما.

قام أرناط أمير حصن الكرك الصليبي بالهجوم على قافلة كبيرة للمسلمين، ويبدو أنها لم تكن المرة الأولى لأرناط التي يهاجم فيها قوافل المسلمين حتى أن قوافل الحجاج لم تسلم منه.

أقسم صلاح الدين أنه إذا تيسر له أن يقبض على أرناط فسوف يقتله بيده، وكانت هذه الحادثة بمثابة عود الثقاب الذي أشعل نار الحرب.

أعلن صلاح الدين الحرب على الصليبيين وأخذ في تعبئة القوات واختار أن يقيم في دمشق خلال هذه المرحلة لتكون مركزًا ينظم منه تحركات قواته من مصر وحلب والجزيرة الفراتية.

استدرج صلاح الدين الصليبيين إلى سهل حطين بفلسطين في يوم شديد الحرارة، وأعمل صلاح الدين وجنده فيهم القتل ومن نجى من القتل كان مصيره الأسر، حتى إن ابن الأثير قد قال في ذلك: "وكان من يرى الأسرى لكثرتهم لايظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى"، وكان من بين الأسرى جان لوزجنان ملك بيت المقدس، وأرناط صاحب حصن الكرك، وجيرار مقدم الداوية (فرسان المعبد)، وقد أحسن صلاح الدين معاملتهم وأطلق سراحهم فيما بعد، إلا أرناط فقد أحضر إلى صلاح الدين فقتله وألقاه على باب الخيمة.

بعد إنتصار حطين توالت المدن والإمارات الصليبية في السقوط، حتى دخل صلاح الدين مدينة بيت المقدس في يوم الجمعة الموافق 27من رجب سنة 583هـ في ذكرى الإسراء والمعراج.

إلَّا أن أوروبا هبت كلها لاستعادة مستعمراتها التي استردها منهم صلاح الدين، وقامت البابوية بالدعوة لذلك، ولم يلبث أن استجاب لهذه الدعوة ملوك وأمراء أوروبا وعلى رأسهم ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، ومعه كل من ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا.

لعب القدر دوره أمام هذه الجحافل الأوروبية، فغرق الإمبراطور الألماني أثناء عبوره أحد أنهار أسيا الصغرى فانهارت حملته ولم تتمكن من الوصول إلى الشام، ثم دب الخلاف بين ملك إنجلترا وملك فرنسا عاد على أثره ملك فرنسا إلى بلاده.

وجد ريتشارد نفسه وحيدا أمام صلاح الدين، ولما عجز عن هزيمته طلب منه الصلح وقبله صلاح الدين وعقد بينهما الصلح المعروف بصلح الرملة 588هـ.

في العام التالي لعقد صلح الرملة توفي السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، وكانت وفاته خسارة كبيرة للعالم الإسلامي وللإنسانية كلها.

خلفاء صلاح الدين في مصر:

بعد وفاة السلطان صلاح الدين حدث نزاع على الحكم بين أبنائه، إلَّا أن الأمر انتهى إلى تولية ابنه العزيز عثمان حكم الدولة الأيوبية والذي لم يستمر حكمه أكثر من خمس سنوات حيث توفي 595هـ بعد أن سقط من فوق جواده قرب الأهرام.

تجدد النزاع بين أبناء صلاح الدين، فتعرضت الدولة الأيوبية إلى خطر التقسيم، حتى تدخل العادل أخو صلاح الدين وحافظ على وحدتها وأصبح سلطانها.

بوفاة الملك العادل وصل الملك الكامل إلى الحكم وفي عهده كانت أوروبا قد بدأت في ارسال حملاتها الصليبية إلى مصر باعتبارها رأس الأفعى كما وصفوها، حيث أدركت دوائر الحكم والقرار في أوروبا أن مصر هي العقبة الرئيسة التي تحول بينهم وبين تحقيق أحلامهم في الشرق، وبالفعل جاءت في عهد الملك الكامل حملة صليبية إلى مصر وحاصرت دمياط، إلَّا أن صمود أهل دمياط ومعهم السلطان الكامل واخوته كان كافيًا لرحيل هذه الحملة تجر ورائها أذيال الخيبة.

تُوفي السلطان الكامل محمد في 636هـ –1238م، وترك ولدان هما العادل الثاني والصالح نجم الدين أيوب، ورغم أن الصالح كان هو الأكبر سنًّا، إلَّا أن السلطان الكامل كان قد عهد بالعرش لابنه الأصغر العادل الثاني حيث كان غاضبًا على الصالح.

فقد حدث أن اشترى الصالح جماعة من المماليك الترك، وحاول الاستيلاء على العرش من يد أبيه الكامل محمد، ولكن محاولته هذه باءت بالفشل مما دفع الكامل إلى أن يجعل العادل الثاني وهو الابن الأصغر، وريثًا له ووليًا لعهده.[1]

على أي حال لم يلبث العادل الثاني في الحكم طويلا حيث استطاع أخوه الصالح نجم الدين أن يستولي على الحكم منه.

وصادف عصر الملك الصالح في مصر، وصول لويس التاسع إلى حكم فرنسا، وكان قد أصيب بمرض عضال وأشرف على الموت، فنذر إن شفاه الله أن يقوم بحملة صليبية، وقد وصلت أنباء هذه الحملة الجديدة وهي السابعة من نوعها إلى الملك الصالح وكان موجودا بدمشق، ويبدو أنه علم أنها متجهة إلى مصر، وعلى الرغم من اشتداد المرض عليه قرر الرحيل إلى مصر.

1– تاريخ الأيوبيين والمماليك في مصر والشام –ص13 د. ليلى عبد الجواد.

تصدَّى الملك الصالح للحملة الصليبية والتي كانت قد استولت على دمياط، إلَّا أن الوفاة قد أدركته قبل هزيمة الحملة وكان له ولد واحد لايزال على قيد الحياة وهو توران شاه الذي أكمل مسيرة أبيه في التصدي للحملة الصليبية، وعاونته على ذلك زوجة أبيه شجر الدر.

استطاع الشعب المصري هزيمة حملة لويس التاسع بل وألقوا القبض على لويس نفسه وقادوه أسيرًا مكبلًا بالأغلال إلى دار القاضي فخر الدين بن لقمان.

سقوط الدولة الأيوبية:

استعانت شجر الدر ببعض أمراء المماليك لتدبير مؤامرة للتخلص من توران شاه وقتله حتى تستولي على حكم الدولة الأيوبية لنفسها، وبالفعل استطاع هؤلاء التخلص من السلطان توران شاه وقتله في محرم عام 648هـ، وبمقتله انتهى الحكم الأيوبي في مصر والذي استمر نحو إحدى وثمانين سنة.